

ساعة الندم



(وَلَوْ أَنِّي لِكُلِّ نَفْسٍ طَلَمْتُ مَا فِي الْأَرْضِ لَفَتَدَتْ بِهِ وَأَسْرَهَا
الذَّادَامَةَ لَمْا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)
(يونس / 54).

لكل فعل و موقف يفعله الانسان ويتحذه عاقبة ونتيجة.. والعاقبة هي نتيجة طبيعية لذات الفعل والموقف.. والنتيجة والآثار التي يتركها الفعل والموقف الانساني لها بعدها.. بعد في العالم الخارجي.. كما في الوضع الاجتماعي و الاقتصادي و الصحي و السياسي و الامني.. الخ. وبعد يمثل طبيعة الاستجابة النفسية ورد الفعل النفسي لل فعل والموقف.. فمن يفعل الخير والمعروف.. يشعر بالرضا والسرور عن فعله و عمله.. ويزداد نشاطاً نفسياً وروحياً واقبالاً على افعال الخير والمعروف.. ومن يفعل الشر والاذى والاساءة لنفسه وللآخرين، ثم يستفيق وعيه وضميره يشعر بتأنيب الضمير والندم والمعاناة النفسية نتيجة فعله السيئ الشيرير.. والندم هو شعور بالحسرة والالم النفسي والوجوداني على امر فائت.. ويتمنى النادم لو انه لم يفعل ذلك الفعل الذي جلب له الحسرة والالم والنداة، ولكن بعد فوات الاوان ووقوع الكارثة.. كمن يقتل نفسها، او يغتصب مالاً، أو يظلم احداً، أو يؤذى بريئاً..

ثم يستفيق ضميره ووجوداته او يرى العذاب والمصير المظلم، فيرى سوء ما فعل ارتكب من جريمة وعدوان فينندم، وتنهش الحسرات أعمق نفسه..

والندم عذاب الضمير، وعقاب النفس المنطلق من الوعي الباطن عند مرتكب الجريمة.. عند من ضيع الحق، وارتكس في احوال الباطل..

والقرآن يفيم علينا بالوعي والثقافة السلوكية، والارشاد النفسي فيدعونا الى أن نتسلح بالوعي والفهم العميق والدقيق للمواقف والاعمال والاقوال التي تصدر عننا فنقيمها ونزتها ونقدّر عواقبها ونتائجها قبل أن نقدم عليها؛ لئلا تكون العاقبة هي الحسرة والندم على ما فعلناه.. فالمحروم الذي ركبه الطغيان والغرور.. غرور الثروة والمال والسلطة والقوة والشهوة فاندفع بلا وعي ولا تقدير لأفعاله وموافقه فارتکب الجرائم والمعاصي والعدوان على الآخرين، أو وضع نفسه في موضع فوق طاقته واستحقاقه وقدره، أو اندفع تحت ضغط الشهوة والغصب والانفعال.. أو لم يلتزم بأصول العمل ومراعاة نظم الحياة وقوانينها، فأعقب الحسرة والندم.. فكم من شخص ذهب ضحية الشهوة المحمرة.. وكم من شخص ذهب ضحية العجلة وسرعة السير.. وكم من شخص ضيّع امواله واهله واسرتة بسوء تصرفه.. فأصبح يقلّب كفه ويغضّ على يديه حسرة وندماً.. ويتمنى لو انه استمع الى نصيحة من نصّه، او اعطاء بغيره، او التزم باحكام الشريعة وارشادها أو عاقه عائق فلم يفعل.. ولكن بعد فوات الاوان.. فبقي هذا المخطئ فريسة للحسرة والندم واللامة، وضحية لسوء تصرفه ودوافعه الشريرة..

والقرآن يتحدث عن اولئك الخاطئون العصاة.. الذين كفروا بنعم الله وسخروا من شريعة الله وحاربوا الحق.. وظلموا وأجرموا وطفوا وبغوا في البلاد، ويصور لنا عاقبتهم في الدنيا والآخرة، ويحذرنا من الكفر والظلم والمعصية والطغيان.. ويصور لنا عظم هذه المعاصي على الانسان يوم الحساب والجزاء.. ان هذا الانسان يود لو انه ملك الدنيا التي نازع الناس عليها وسفك الدماء وهتك الحرمات، ومارس اللوان الظلم والطغيان من اجلها.. يود لو انه يستطيع ان يقدم كل ذلك مقابل دفع العقاب وانقاد النفس.. وهذا هو يصطلي بنار العذاب، وبجحيم الحسرة والندم..

ذلك ما نقرأه في قول الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ طَلَمَاتٌ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرَّ وَا النَّدَادَمَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقَسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (يونس/ 54).

ويتوالى تحذير القرآن وانذاره من الغفلة وعدم التهيؤ ل يوم الحساب والجزاء، ومن ان يندم الانسان

بسبب افعاله السيئة وجرائمها وظلمها ومعصيتها لخالق الوجود.. ويسمى ذلك اليوم بيوم الحسرة على الطالمين والعماء وال مجرمين.. جاء هذا التحذير في قوله تعالى: (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (مريم/ 39).. لقد فات الأوان، وانتهت فرصة التلافي، وهم في غفلة ساهون.. فلا ينفع الندم..

ويتحدث القرآن عن ندامة اتباع قياداتهم الصالحة المنحرفة التي خدعهم وضللتهم وجنت عليهم واوصلتهم الى الهاوية في الدنيا والآخرة، واصبحوا مجرمين ومعذبين بسبب هذا الاتباع، وتلك القيادات..

كل" هذا التثقيف القرآني ليعي الانسان مسؤوليته في اختيار العقيدة والجماعة والقيادة التي ينتمي اليها.. لاسيما ذلك الانتماء الذي يقرر مصيره..

نقرأ ذلك في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُصْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّامِيلُ وَالذَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَ زَكْفُرَ بِاللَّامِ وَزَاجْعَلَ لَهُ أَنَّدَادًا وَأَسَرُّ وَالذَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلَنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْذَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (سبأ/ 33).

وفي موقع آخر يحذر القرآن ويكرر التحذير من قيادات السوء الذين يخدعون البسطاء والاتباع، و يجعلونهم سلماً للوصول الى اهدافهم، فاذا واجهوا ساعة الندم والعقاب، وخسروا ما كانوا يوعدون به، او ما قد حصلوا عليه من حطام الدنيا من السلطة والمال والوجاهة وغيرها، تبرأوا من اتباعهم، وراحوا يحمل بعضهم بعضاً اسباب الكارثة ويلعنهم، ولكن بعد فوات الأوان، وقد احاطت بهم الحسرات وساعة الندم..

لنقرأ مرة اخرى بيان الوعي والنذير: (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَدَنَا كَرِّةٌ فَنَذَّتَبَرَ أَمْنَهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنْهُمْ كَذَلِكَ يُرْيِهِمُ اللَّامُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ الذَّهَارِ) (البقرة/ 167).

ويتوافق تحذير القرآن وتنقيفه وتوعيته في قضية عقائدية وسياسية واجتماعية خطيرة، وهي قضية الولاء.. فكما تحدث عن الولاء للقيادات الطالمة والمنحرفة التي تقود الى الندم والحرارة كذلك تحدث عن الولاء المزدوج.. والنفسيات القلقة في ايمنها وولائها للاسلام والمسلمين، والتي تبطئ الولاء لاعداء الاسلام

وال المسلمين العقidiين.. كشف لنا القرآن عن الطاهرة النفسية المرضية والنفاقة بقوله: (فَتَرَى
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ رَحْشَنَ أَنْ تُصْبِدَنَا
دَائِرَةً فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا
عَلَى مَا أَسْرَرْتُ وَإِنَّ فِي أَنفُسِهِمْ زَادَ مِنْ) (المائدة/ 52).

وبذا يوضح القرآن ان اصحاب هذه النفيسيات المزدوجة الولاء.. المذبذبين في عقيدتهم ومواقيفهم، يبحثون عن المكاسب المادية والسياسية والاجتماعية ويتخذون العقيدة ستاراً ووسيلة لتحقيق اهدافهم الدنيوية.. ينطبق عليهم قول الشاعر:

لا خير في ود إمرئ متلوز*** إذا الريح مالت مالـ حيث تميل

ان هؤلاء سيكونون الندم والحسرة عاقبة موافقهم وانتماءاتهم المضطربة عندما يتحقق الفتح والنصر للحق..

ويشخص لنا القرآن حالة اخرى من حالات العداء للعقيدة ولمصالح الامة ولأنها واستقرارها التي تعقب الحسرة والندم والعقاب.. وهي ظاهرة الانفاق المالي في سبيل الشيطان ومحاربة الحق والعدل والايمان.. ان هؤلاء المتمولين، أصحاب المال والثروة التي ينفقونها ليصدوا الناس عن الايمان، وعن مناصرة الحق، ولنشر الكفر والفساد والطغيان.. ان اولئك سينفقون هذه الاموال، ثم يغلبون، ثم تكون اموالهم واعمالهم حسرة عليهم.. وتلك دعوة الى ان ينفق المال لنصرة الحق، ونشر دعوة الهدى وقيم الاخلاق واصلاح المجتمع، كما هي دعوة لردع اولئك المنافقين اموالهم لنصرة الباطل والمضلal والعدوان والفساد..

ويتوافق بيان القرآن وتنقيحه وتوعيته للانسان، محذراً من التأثير بقرناء السوء، ومن يعاشر الانسان من الناس السيئين ويختلطهم ويتأثر بطبعاتهم وعقائدهم واخلاقهم السيئة.. ويصور هذا الانسان الذي صار ضحية الاستماع الى اولئك الناس والتقبل منهم.. يرسم صورته المأساوية، وهو بعض على يديه ندما وحسرة، ويتمنى لو انه لم يتعرف على هذا المجرم الذي قاده للجريمة، وجعله ضحية الانحراف والمعصية.. يتمنى لو انه استمع الى الكلمة الحق وهدي النبوة وتخلق بمكارم الاخلاق.. ولكن بعد فوات الاوان؛ لذا يحذر القرآن الانسان ويدعوه لان يبتعد عن الظلم والكفر والفساد، ويتخذ مع الرسول (ص) الذي جاءه بالهدي سبيلاً..

تلك الصورة نقرؤها مجسده في تصوير القرآن المعبّر بنصه:

(وَيَوْمَ يَعْصِمُ الظَّالِمُ عَلَى يَدِهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَتَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَصَطَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِإِنْسَانٍ خَذُولاً) (الفرقان/ 27-29).

وصورة أخرى من صور الحسرة والندامة ينقلها القرآن لنا مُعبرة على لسان المجرمين والعمالة والكافرين عندما يقرأون سجل اعمالهم، وصحيفة جرائمهم ووثائق ادانتهم.. ما كان قولهم: لننصل اليهم عبر بيان الكتاب الالهي الامين: (أَمَّا مَنْ أُوتَيَ كِتَابَهُ بِرِشْمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابَهِ وَلَمْ أَدْرِ مَا حَسَابَهِ * يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ) (الحاقة/ 25-27).

بل تشهد الحسرة والندامة واحتقار الذات، عندما يرى هذا الانسان العاقبة والمصير المخزي.. يتمنى لو انه كان تراباً.. نطاه الاقدام، ولا يلاقى ذلك العذاب والمهانة..

(إِنَّمَا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمُرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ زُرَّابًا) (النبا/ 40).

ولسوء ما يلقي هؤلاء المضيغون واللاهون والعمالة الذين لا يعيدون الحساب والتقييم ونقد الذات.. لسوء ما يلقي هؤلاء من العقاب والعذاب والخسران، يطلق القرآن الحسرة عليهم فنستشف منها الرحمة واللطف الالهي بالعباد، والحرص على هدايتهم وخيرهم واصلاحهم، وتجنبهم الشقاء والعقاب في الدنيا والآخرة.. ذلك ما نقرأه في قوله تعالى: (يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيَهُمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِنُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكَنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَرْهَمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) (يس/ 30,31).

كل هذه التعبئة الثقافية والتحذير وسوق الامثال.. كل ذلك ليحذر الانسان مما يقوده الى الحسرة والندامة في كل مجال من مجالات الحياة.. و: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (ق/ 37).